وفي الحقيقة، لا يملك المرء سوى ان ينسجم فكرياً مع أسس هذه الحجة. فقد قام الاستعمار الغربي، عموماً، على عقدة التفوّق والعنصرية المقيتة. وكان النموذج الصهيوني للاستعمار احد أهمّ النماذج الاستعمارية ايماناً بالتفوّق العنصري على العرب، عموماً، والفلسطينيين خصوصاً[٣٦]. وقد كان الايمان بأهمية نهج الكفاح المسلح وحرب التحرير الشعبية في تخليص الشعب الفلسطيني ممّا علق به من ظواهر نفسية، واجتماعية، عبر مسيرة قضيته، وما ترتب عليها من بؤس وشقاء وتمزّق، احد أهم العوامل التي قادت تنظيمات المقاومة الى تبنّي هذا النهج، وتضمينه في مواثيقها الاساسية، ثمّ اضافته الى الميثاق الوطني الفلسطيني ذاته، في أواخر الستينات[٣٧]. وكان البعض محقاً، حين رأى ان حركة المقاومة الفلسطينية قد أهملت، نسبياً، عمليات تكييف الشخصية الفلسطينية اجتماعياً واقتصادياً في طريقها الى تعبئة المجتمع الفلسطيني عسكرياً، وتركيزها على العنف المسلح في سنواتها الاولى[٣٨]. وهكذا، مثّل العنف الفلسطيني علاجاً لكثير من مظاهر العقم النفسي، والابداعي، في الشخصية الفلسطينية، وأدّى الى تعزيز الكرامة الوطنية الفلسطينية؛ وربما قاد، في مرحلة من المراحل، كما حدث بعد هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ مباشرة، الى اعادة، وتعزيز، الثقة بين أبناء الامة العربية بأسرهم. ومع صحة ذلك كله، ما الذي يمنع القول ان انماط المقاومة المدنية تسهم، بدورها، في تعزيز الكرامة الوطنية الفلسطينية، وتمثّل تعبيراً عن الثقة بالنفس؟ لقد سبقت الاشارة الى ان الشجاعة، والاستعداد للتضحية، والحركة الجماعية، والتضامن الداخلي، والصبر، والثبات في مواجهة قهر سلطات الاحتلال تعد من مقوّمات الشروع في مقاومة مدنية موفّقة. ورأى البعض ان انتفاضة الشعب الفلسطيني المعاصرة هي، في احد وجوهها، «تعبير عن الثقة بالذات والايمان بالقدرة على مقاومة العدو، وادراك لحقيقة هذا العدو بجوانب قوّته وضعفه واليقين بالنصر في النهاية»[٣٩].

وفي الاتجاه عينه،قال أحد المختصين بالصحة النفسية في الارض المحتلة: «انه بالرغم من تعرّض الفلسطينيين لعنف منهجي خلال الانتفاضة، فانهم في وضع صحي أفضل ممّا كانوا عليه في العشرين عاماً الماضية. فمعنوياتهم عالية، وآمالهم كبيرة، والتفاؤل هو السمة الغالبة على سلوكهم وتوقعاتهم، ولديهم الرغبة في الاستمرار بالانتفاضة، كظاهرة صحية في المستويات الاجتماعية والسياسية والنفسية. حتى انه يمكن القول، ان احداً لم يعد بحاجة الى مهدئات، واللجوء الى الخرافة والشعوذة، أو حتى الى وسائل الاعلام الاسرائيلية، للهروب من الواقع السيىء...»[٤٠].

٥ ـ الكفاح المدني وحده لا يكفي

مؤدى هذه الحجة ان الكفاح المدني اللاعنيف يمكن ان ينجح في ارباك السلطات الاسرائيلية، لكن بشرط ان يترافق والكفاح المسلّح العنيف. وهذا التلازم بين النمطين من شأنه ان يجبر الاسرائيليين على الجلوس الى مائدة التفاوض، ثمّ انهاء الاحتلال ذاته. وهذه حجة وجيهة، ومنطقها قوي. وفي الحقيقة، فان الدعوة الى ردف أنماط المقاومة المدنية في الانتفاضة بأنماط من النشاط الفدائي المسلّح هي دعوة ملحّة عند البعض، منذ بدأت الانتفاضة. وهناك من توقّع ان تتجه الانتفاضة الى العنف في مرحلة غير بعيدة[٤١]. ورأى آخرون ان الانتفاضة لا تمثّل طوراً من أطوار النضال المسلّح، لكنها لا تخلو من أشكال العنف[٤٢]. لكن الموقف المعلن للقيادة الفلسطينية لم يحبّذ تصعيد أنماط الكفاح المسلح في اثناء الانتفاضة، على أساس عدم اعطاء الفرصة لسلطات الاحتلال لشنّ حملات ابادة ارهابية مفتوحة ضد الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال[٤٣]. وقد لقي هذا